جامعة سيدي محمد بن عبدالله
كليــة الآداب والعلوم الإنسانية
ظـهـر المهراز – فــاس

شعـبة التــاريــخ
مسلك: التــاريخ والحـضارة

محـاضـرات ألقيت على طـلـبة
الفصل الرابع: تــاريخ وحـضـارة

وحدة: تاريخ المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء إلى حدود القرن19

الأستاذ: عـلـى عـلام

السنــة الجـامـعيـة:

2019 - 2020

تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
إلى غاية القرن 19

تقديـــــم:

تاريخ العلاقات المغربية – الإفريقية تاريخ متميز لأنه يغوص في أعماق الزمن إلى درجة أنه يمكن القول بأن تاريخ شعوب السودان الغربي- على الخصوص- ظل لفترة طويلة مرتبطا بالتطورات التي عرفها المغرب ويمكن تحديد هذه الفترة، واعتمادا على المصادر- من الفتح الإسلامي بالمغرب إلى مطلع القرن التاسع عشر، حيث انتقل مرْكز التأثير إلى الدول الأوربية الاستعمارية التي قسمت البلاد الإفريقية إلى مستعمرات ومناطق نفوذ فيما بينها.

وبالرغم من ندرة المصادر التي تصور بوضوح هذه العلاقات، فإنها تؤكد على استمراريتها منذ التاريخ القديم.

وقد أصبحت الحفريات من أهم المصادر لكتابة تاريخ إفريقيا السوداء عموما، وجعلت الأوربيين يراجعون موقفهم المعتمد على نفي وجود أي حضارة سابقة على وصول أوربا إلى هذه البلاد. وأثبتت الحفريات تأثير وعمق تأثير الشمال في تكوين هذه الحضارة وتطورها، لقد أكدت الحفريات ما قرأه الأوربيون في كتابات البكري عن ذلك، وتوصلت لمآثر هذه الحضارة وبقاياها ".. آثار مدينة إسلامية، بلغت ميلا مربعا في مساحتها، كان عدد سكانها ما يقرب من ثلاثين ألف نسمة..." (بازل دافدس، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال محمد أحمد، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، 1961، ص 140).

إذ كانت هناك ملامح حضارة ذات خصوصيات معينة مرتبطة بالشمال، وقد جعل بعض الباحثين هذا الارتباط عضويا، وقد كتب المؤرخ الإنجليزي "بوفيل" BoVill سنة 1961 "... وقبل قدوم العرب لم نكن نعلم شيئا في إفريقيا جنوب المغرب". واعترف هذا المؤرخ بأهمية الدور الذي قام به المؤرخون والرحالة

والجغرافيون العرب في التعريف بإفريقيا "فنحن ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من المؤلفين أهمهم المسعودي وابن حوقل والبكري والإدريسي وابن فضل الله العمري وابن بطوطة وابن خلدون".

لقد تحدث هؤلاء على إفريقيا السوداء باعتبارها موطنا لأربع سلالات: الزنوج، الأحباش، النوبة، السودان، وحاولوا تحديد مجالات جغرافية لهذه المجموعات: فالزنوج يضعونهم بشرق القارة الإفريقية، والأحباش بأثيوبيا والنوبة بوادي النيل، أما السودان فتمركزهم واسع النطاق، بجنوب صحراء ليبيا والمغرب إلى حدود خط الاستواء.

لقد تحدث الرحالة والمؤرخون والجغرافيون العرب عن الارتباط بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. وبينوا أن الصحراء الإفريقية التي تمثل عائقا طبيعيا بين القسمين شكت مجالا للاتصال والتبادل على جميع المستويات (الاقتصادية، والبشرية والدينية والثقافية..)

إن اتصال إفريقيا جنوب الصحراء بالعالم الخارجي (منذ القرن 2 الهجري/ 8 الميلادي) وإلى وقت متأخر يكاد لا يتم إلا عن طريق العرب المسلمين وخاصة عن طريق المغرب وكان للإسلام الدور الفعلي والحقيقي في عملية دفع هذا الترابط إلى حد التلاقح والتمازج والانصهار التام، فمن الشمال الإفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء فاللقاء بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء لقاء تاريخي لا يمكن تجاهله أو تناسيه في التشكيل البنيوي لمجتمعات إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء.

وقد مرت هذه الصلات التي تمثل التواصل والترابط بمراحل تاريخية يمكن تحقيبها إلى حقب ثلاثة وهي:

المرحلة الأولى: من القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي (1 هـ/7 م) إلى نهاية القرن الرابع الهجري بداية الحادي عشر الميلادي (4 هـ/11 م). وفي هذه المرحلة كانت الصلات والروابط مبنية على الاحتكاك السلمي بين تجار العرب والبربر

وأفارقة جنوب الصحراء. وفي هذه المرحلة التي امتدت أربعة قرون تم الاكتشاف المغربي العربي الإسلامي لتخوم الصحراء الإفريقية وما وراءها جنوبا إلا حدود الغابات الاستوائية قريبا من خط الاستواء.

المرحلة الثانية: من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي. وفي هذه المرحلة برزت حركة الجهاد الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء مع الدور المرابطي في تاريخ غرب إفريقيا كلها [حتى أقاموا امبراطورية شاسعة تمتد من نهر السنيغال].

المرحلة الثالثة: من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، إلى بداية التغلغل الاستعماري الأوربي في القارة الإفريقية في العصر الحديث، وفي هذه المرحلة نلمس أن الروابط اعتمدت على مواصلة الدعوة الإسلامية وتعميق مفاهميها بين الأهالي بإفريقيا جنوب الصحراء. وهذه المرحلة تمتاز بخاصية لم تكن واسعة النطاق في المرحلتين السابقتين عليها، وهي تكوين الزعامة الدينية المحلية على الأساس الإسلامي المبني على الفهم المغربي له.

لقد شكلت التجارة في العلاقات المغربية مع السودان عمودا فقريا، قائمة على التبادل والتكامل حيث السودان تمتلك المواد التي ظلت طيلة فترة طويلة من السلع الضرورية للتجارة العالمية وعلى رأسها الذهب.. بينما يمتلك المغرب المواد المتوسطية التي تفتقر إليها السودان ويمتلك على الخصوص مصادر الملح التي كانت السيطرة عليها أساسا في هذا التبادل التجاري.

وسنتناول في هذه المادة المحاور التالية:

I - إشكالية تجربة الإسلام ببلاد السودان

II - مظاهر العلاقات الثقافية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

III - العلاقات الاقتصادية

IV - العلاقات السياسية

V - دور الزاوية التيجانية في تمتين الروابط بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.

المراجع:

- عبد القادر زبادية: العلاقات العربية الإفريقية في التاريخ الحديث ، 1961.
- الدكتور يوسف حسن فضل: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت 1984.
- أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 9 أجزاء.
- بازل دافدس: أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة مصطفى أحمد بيروت 1961.
- عبد الرحمن ابن زيدان: إتحاف أعلام الناسُ بجمال أخبار حاضرة مكناس 5 أجزاء.
- مجلة كلية الآداب، ظهر المهراز فاس، عدد خاص رقم 5، 1989.
- عبد الله العروي، علاقات المغرب بإفريقيا: ملاحظات أولية 1987.
- أحمد الأزمي: الإشعاع الصوفي المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء خلال التاريخ الحديث والمعاصر.
- يوسف فضل حسن: ملامح من العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان منذ القرن 15 وحتى القرن 19، 2009 (المعهد الأفريقي).
- ابن بطوطة، شمس الدين محمد، الرحلة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، 1985، جزءأن.
- عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان
- الحسن بن محمد الفاسي الوزان، وصف إفريقيا، بيروت، 1983 (جزأن)
- ابن خلدون، العبر، بيروت 1956-1961 (7 أجزاء) (ج 5).

العلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

إن تناول موضوع العلاقات بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء أو ما يسمى بالسودان الغربي تفرض مراعاة المعطيات الطبيعية والمناخية للصحراء الإفريقية الكبرى، والمقام هنا لا يسمح بتتبع ورصد مجمل التأثيرات المتبادلة ما بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وسنكتفي بإثارة بعض القضايا ذات الصلة بالجانب الديني الثقافي:

أ ــ إشكالية تجربة الإسلام ببلاد السودان:

إن الإشكالية التي تطرحها قضية تجربة الإسلام واللغة العربية بالبلاد السودانية، تستدعي بداية الوقوف عند ملاحظة أساسية مفادها أنه منذ بداية تردد أصداء الدعوة الإسلامية بالمنطقة عند ملتقى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (10–11 م) وإلى غاية القرن 19، لم تهدأ ولم تتوقف عملية انتشار الإسلام بالمنطقة والدعوة له.

حقا لقد بذل أهل المغرب مجهودات لا يستهان بها في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وتبين كذلك أن السودانيين من جانبهم رحبوا بالإسلام وعبروا من خلال عدد من المؤشرات والسلوكيات عن رغبتهم العميقة في الانتماء للعقيدة والثقافة العربية الإسلاميتين.

فلماذا لم يأخذ الإسلام مكانته العادية بالمنطقة مثلما هو الحال بالنسبة لمصر أو المغرب؟ هناك ثلاثة عوامل أساسية كان لها وقع سلبي على مسيرة وصيرورة انتشار الإسلام ببلاد السودان (أو ما أصبح يعرف بإفريقيا الغربية حاليا)، وبالتالي لم تسمح بتطوره بشكل طبيعي، وهي:

ــ قلة الدعاة وانعدام انتظام عملية نشر الإسلام: في مساحة جغرافية شاسعة مثل بلاد السودان، تضم قبائل ولهجات أو لغات تعد بالمئات، كان يفترض أن تستقطب عددا كبيرا من الدعاة المسلمين، غير أنه بالرجوع إلى المصادر المتوفرة على امتداد

الأحقاب الفاصلة ما بين القرن 10 والقرن 16 للميلاد، يتأكد لنا أن عددهم كان قليلا جدا، ويعتقد أن الصحراء بمعطياتها الطبيعية والمناخية الصعبة قد حدت من تدفق عدد كبير من الفقهاء والدعاة فيما بين ضفتيها.

وبالنسبة للتجار المغاربة الذين كانوا يزورون المنطقة، فلا ينبغي أن ننتظر منهم ترك عملهم الذي جاءوا من أجله ليتفرغوا لنشر الإسلام، ويمكن أن نقول إن مساهمتهم تكمن في كونهم مهدوا الطريق للدعاة المسلمين، وأزاحوا من أمامهم العوائق النفسية وغيرها من العراقيل التي يمكن أن تعوق التواصل مع إفريقيا جنوب الصحراء.

والوجه الثاني لهذه القضية، أن عملية انتشار الإسلام بالمنطقة- كما تشهد على ذلك جل المصادر- تحققت بطريقة عفوية وسلمية، مما يعني أنها لم تخضع لرغبة سياسية منظمة وموجهة ومدعمة من طرف أي دولة إسلامية.

ب ــ قلة المراكز الحضرية في بلاد السودان الغربي:

لقد ارتبط نشر الإسلام بالنشاط التجاري في إفريقيا جنوب الصحراء، مما يفسر ارتباط الإسلام بالمراكز الحضرية السودانية، فقد كانت التجارة تنتشر بشكل كبير ورئيسي بالمدن والحواضر الكبرى، وكانت هذه الأخيرة قليلة بالمقارنة مع مساحة البلاد، كانت حصيلة أهم المدن الإفريقية في العصر الوسيط ضعيفة جدا، بحيث لم تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وأشهرها: ولاته، وتمبكتو- وجني، وغاو.

وقد شكل هذا العامل بدوره أحد العناصر التي ساهمت في خنق قنوات تسرب وتدفق التأثيرات الإسلامية، الشيء الذي يبين لنا لماذا كانت وثيرة عملية انتشار الإسلام بطيئة، والخلاصة التي تتأتى لنا بهذا الشأن أن الإسلام وجد تربة خصبة بالمدن الإفريقية جنوب الصحراء، في حين بقيت الأرياف بعيدة عن تأثيره. وهذه الملاحظة لا تعني أن الأرياف الإفريقية كانت أكثر مقاومة للإسلام أو أكثر تشبثا بمعتقداتها القديمة (كما تدعي بعض المصادر الغربية القرسطوية)

إن تفسير هذه المسألة يكمن في الطريقة أو الوسائل التي ركبها الإسلام للوصول إلى السودان (إفريقيا جنوب الصحراء)، فقد كان التاجر المسلم – بحكم طبيعة عمله– يبحث عن الأسواق الكبرى المتوفرة أساسا بالمدن وليس بالأرياف، لذلك كانت المدن تمثل إغراء ماديا بالنسبة له، وفضلا عن ذلك كانت المدن توفر للتجار الأمن، والأمان، الذي قد لا يجدوه في الأرياف ذات الأسواق الصغيرة، من ثمة نفهم استقرارهم بها وتأثيرهم على أهلها من خلال سلوكياتهم وعملهم الدعائي إن أتيحت لهم الفرصة.

وبموازاة مع ذلك، فإنه كلما بلغ تاجر مسلم أحد أسواق مدائن أفريقيا جنوب الصحراء تعقب خطاه فقيه داعية، واستقر بتلك الحاضرة بهدف تعليم السُودانيين مبادئ الدين الإسلامي، وبذلك انتشرت التعاليم الإسلامية بالمدن الإفريقية مقارنة مع الأرياف.

ج ــ واقع اللغة العربية في بلاد السودان وقضية التعريب:

بالنظر إلى كون الإسلام انتقل من بلاد المغرب إلى بلاد السودان عبر بربر الصحراء (الأمازيغ) وعلى اعتبار أن عملية التعريب لم تكن ممكنة في المنطقة بسبب ضآلة عدد الفقهاء أو العناصر العربية، فقد احتفظت القبائل الإفريقية بعد إسلامها بلغاتها ولهجاتها المحلية، ولم توظف اللغة العربية إلا في القليل النادر من حياتها اليومية والدينية، ففي منتصف القرن 14 م، وعلى الرغم من الحماس الذي أظهره أهل مالي في سبيل ترسيخ الدعوة، يذكر الرحالة ابن بطوطة أن كل خطيب من خطباء مساجد الإمبراطورية كان مضطرا للاستعانة بمترجم "يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب".

ــ مشاكل وصعوبة الصحراء الكبرى:

- التعابين والحياة: تعد خطير على صحة وسلامة المسافرين
- شدة الحر والجفاف.
- العطش (الماء في أبار عميقة جدا، والماء المالح)

– الرياح، يقول الحسن الوزان: إن هذه الرياح يمكنها أن تغطي مدينة بكاملها، ويمكن أن تلحق أضرارا بالغة باعتدائها على القوافل، كما يمكنها أن تبخر كل الماء الذي تستعين به القافلة في الطريق وحينئذ يضطر أصحاب القافلة إلى نحر بعض جمالهم لاستخراج الماء من بطونها بهدف استهلاكه، وذلك في انتظار العثور على بئر أو يهلك المسافرون عطشا.

لذلك كان الفرد في المغرب يفكر مليا قبل أن يقرر اجتياز الصحراء

تبقى مع ذلك إمكانية الهلاك في الصحراء واردة لدى الرحالة

حاول ابن بطوطة العودة من الطريق وهو لم يُصل إلى بلاد السودان

إذ مقابل المغامرة في هذه الصحراء هناك : الذهب وهناك الزهد (زهد الفقيه في الحياة الدنيا).

وبعد حوالي قرنين من ذلك، أي في عهد امبراطورية سنغاي (مالي الحالية)، حاول الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي أن يلفت انتباه الناس إلى أن تجار بلاد المغرب حين توجههم لبلاد السودان، كانوا مضطرين لتعلم اللغات المحلية للتواصل مع السودان (الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ، 2، ص 160).

وعدم تمكن الإفريقين جنوب الصحراء من العربية لم يلحق الضرر بالمستوى الثقافي فحسب، وإنما أصبح يهدد آفاق العقيدة الإسلامية نفسها لديهم، بسبب ظهور الانحرافات الناتجة عن عدم فهم مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد شغلت هذه القضية ذهن الفئات المتنورة من علماء وفقهاء إفريقيا جنوب الصحراء، وهذا ما تكشف عنه الرسالة التي وجهها أحد الفقهاء القاطنين بتمبكتوا للإمام جلال الدين السيوطي عام 1493، حيث استفسره في تلك الرسالة عن عدد من المسائل الفقهية ومنها: هل يجوز مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بالكلام الأعجمي؟ فرد عليه الإمام السيوطي بالإيجاب (السيوطي، الحاوي للفتاوى، القاهرة مكتبة القدس 1351، ج 1/285–288).

خلاصة القول: إن انتقال الإسلام إلى بلاد إفريقيا جنوب الصحراء عبر بربر الصحراء فضلا عن قلة العناصر العربية التي تحملت مسؤولية بث الدعوة الإسلامية في تلك الأرجاء، وهي محرومة من كل دعم مادي أو معنوي، ثم أخيرا ضعف المجال الحضري السوداني، كل هذه المعطيات وفرت ظروفا غير مساعدة على تعريب السودانيين، وبالتالي على إمكانية ازدهار الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة.

ومما زاد في تعقيد الوضع، تزامن الصحوة الثقافية الصحراوية مع بداية اكتساح أوربا المسيحية للشواطئ الأطلسية، مما أثر على المحاور التجارية الصحراوية بشكل جدي ورغم كل العراقيل والتحديات، فلقد تمكن الإسلام من اختراق الحاجز الحديدي الذي تمثله الصحراء وانتشر بين فئات واسعة من المجتمع في إفريقيا جنوب الصحراء. وتشكلت نخبة متنورة عميقة التأثر بالثقافة العربية الإسلامية خاصة في تمبوكتو وجني.

وانتقلت بالمجتمع من مرحلة التلقي والاستيعاب إلى مرحلة العطاء والإنتاج الفكري وذلك منذ بداية القرن 16 م. فظهرت أسماء مثل الفقيه القاضي محمود كعت (تاريخ الفتاش) الذي بدأ عملية التأليف، ثم برز المؤرخ بابا كور بن الحاج محمد الأمين كانو،...

وما كاد القرن 17 م يطل حتى برزت أسماء وازنة في الثقافة العربية الإسلامية نخص بالذكر منها: أحمد بابا صاحب التأليف المشهور في العالم الإسلامي، وعبد الرحمان السعدي صاحب تاريخ السودان...

خلاصة:

لاشك إذن، في أن المقبل على السفر إلى بلاد السودان مرورا بالصحراء لابد وأن تحفزه إغراءات قوية وجذابة جدا، حتى يمكنه أن يقبل الخوض في مثل هذه المغامرة، ويقدم عليها، ولو لم يكن الملح يقايض وزنا بوزن مع الذهب السوداني، ما خاطر تجار بلاد المغرب ومصر بأنفسهم لجلب الذهب السوداني، وكذلك الفقيه المسلم، لا شيء يمكن أن يدفعه لاجتياز الصحراء بهدف نشر الإسلام بين أهلها والسودان الذين وراءهم- إلا زهده في الحياة الدنيا. لذلك نجد قلة من الفقهاء والدعاة المسلمين من تجشموا مصاعبُ الصحراء وخاطروا بأنفسهم ابتغاء مرضاة الله، لذلك علينا أن نقيم اعتبارا كبيرا- وكبيرا جدا- للصحراء كمعطى جغرافي وثقافي كان له الأثر الكبير في تقييم تجربة التواصل بجوانبها المختلفة ما بين ضفتي الصحراء. (شكري، ص 123).

II - مظاهر العلاقات الثقافية:

حظيت العلاقات الثقافية بين ضفتي الصحراء الكبرى بعناية المهتمين بالدراسات الإفريقية، والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا بصفة خاصة، وقد أولاها المغاربة والمشارقة والأفارقة ما تستحقه من عناية (من خلال تنظيم العديد من الندوات في هذا الموضوع).

ونشير إلى أن العديد من المصادر والمراجع تناولت هذا الموضوع، وتتوزع بين كتب الرحلات، والآداب، والتراجم، والفقه...

وتسلط هذه المصادر الأضواء على هذا التواصل، إذ نشير إلى الأدوار الإيجابية التي قامت بها عناصر الجالية المغربية المقيمة بمدن إفريقيا جنوب الصحراء. ومن أهم هذه المصادر نذكر:

- الشهادات التي خلفها الرحالة المغربي ابن بطوطة (شمس الدين محمد) عبد الله االطنجي (ت 756 هـ/1356 م) عن المنطقة، وذلك على إثر زيارته لبلاد السودان عام 1352 م، فقد أشار في رحلته: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" إلى أنه انطلق من سجلماسة في طريقه إلى "نياني" عاصمة مملكة مالي، فتوقف "بولاته" ولقي هناك رجلا من مدينة سلا، ثم واصل طريقه في اتجاه عاصمة المملكة السودانية، وحين دخوله إليها استقر بحي يقطنه المغاربة مع عناصر عربية مصرية [...] وفي طريق العودة إلى المغرب مر ابن بطوطة بمدينة "غاو" Gao ولقي هنالك عددا من المغاربة منهم محمد بن عمر المكناسي والحاج محمد الوجدي...

- كما أن الكثير من المعلومات عن مملكة مالي وأحوالها في منتصف القرن 14 م الواردة في الموسوعة الضخمة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لأحمد بن يحيي بن فضل الله العمري [ت 449 هـ/1349 م]، أسندها المؤلف لرجل من جهة دكالة بالمغرب الشيخ أبو عثمان سعيد الدكالي الذي أقام ببلاد السودان مدة 35 سنة

ونفس الأمر نلاحظه مع ابن خلدون أثناء استعراضه لتاريخ مملكة مالي حيث اعتمد هو الآخر على رواية رجل من أهل سجلماسة وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن وانسول الذي عينه أهل مدينة غاو GAO قاضيا بالمدينة.

وكل هذا يدل على تواجد المغاربة خلال فترات طويلة بأقطار إفريقيا جنوب الصحراء، وانطلاقا من القرن 15 وإلى غاية القرن 19 سيتزايد دور هؤلاء المغاربة في التأثير على الحياة الدينية والثقافية ببلاد السودان. ونذكر من بين العلماء المغاربة الأسماء التالية:

- العالم محمد بن القاسم الفوري (ت 872 هـ /1467 م) من أصل أندلسي، هاجرت عائلته إلى المغرب، واستقرت بمكناس، وبعده استقر بفاس، وبها اشتهر علمه وذاع صيته كعالم في الفقه والتفسير، انتقل الكثير من تلامذته لبلاد السودان بغرض التدريس.
- الشيخ ابن غازي: (ت 910 هـ-1504 م) خطيب مسجد مكناس، ثم مسجد القرويين بفاس.
- القاضي عبد الله بن أحمد الزموري: قام برحلة لولاته، ودرّس هنالك وتتلمذ على يديه عدد كبير من علماء تمبكت (ت بعد 888 هـ/1483 م).
- الفقيه مخلوف البلبالي: (ت 1534 م)، رحل للتدريس في أكبر مدن شمال نيجريا (كنو) فضلا عن تمبكت، وفي آخر حياته عاد إلى المغرب واشتغل بالتدريس بمراكش.
- عبد الرحمان سقين (ت 956 هـ/ 1550 م) أمضى معظم شبابه بالمغرب، ثم رحل إلى المشرق لطلب العلم، وبعد أداء فريضة الحج توقف بمصر لاستكمال دراسته، ومنها توجه إلى إفريقيا الغربية فدخل مدينة "كنو" وبعد جولاته العلمية بالمدن الإفريقية عاد إلى فاس، حيث عمل خطيبا بمجسد الأندلس إلى أن توفي عام 956 هـ/ 1550 م.

وقد لعب هؤلاء العلماء دورا هاما في حركية التواصل الثقافي عبر العصور وتشير المصادر إلى أنه "لا تخلو قافلة واردة من المغرب على السودان من فقهاء وعلماء يتوزعون على أهم الحواضر".

كما أن علماء بلاد السودان دخلوا ورحلوا إلى الشمال إما للحج أو لطلب العلم أو للتجارة، ولنا أمثلة في شخص: أحمد بابا التنبكتي (ت 1627 م) الذي تم ترحيله إلى مراكش سنة 1593 بعد الحملة السعدية إلى السودان.

دامت إقامته بمراكش ثلاثة عشر سنة، واهتم به السعديون، فتفرغ للتأليف والتدريس والفتوى، وكان يقبل على زيارة الأولياء بمراكش وفاس، وأخذ عنه بالمغرب العديد من العلماء والفقهاء نذكر منهم:

- القاضي أبو العباس أحمد بن القاضي (قاضي مكناس)
- وقاضي فاس، أبو القاسم بن نعيم الغساني
- وقاضي مراكش عبد الواحد الركراكي
- ومؤرخ تلمسان، أحمد المقري.

وخلال إقامته بالمغرب، أنتج أحمد بابا جل وأهم مؤلفاته وهي: "نيل الابتهاج" و"كفاية المحتاج".

وكذلك عبد الرحمان بن عبد الله السعدي (ت 1064 /1655 م)، اهتم بالكتابة والتأليف عن العلاقات المغربية – السودانية، واستخلص نتيجة أساسية وهامة في كتابه "تاريخ السودان"، وهي أن المغاربة منذ الفتح الإسلامي إلى ما بعد ذلك هم الذين أحدثوا نقلة في تاريخ غرب إفريقيا (بلاد السودان)، وساهموا مساهمة فعلية في إدراج حضارات حوض البحر المتوسط وإدخالها إلى مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء...

وهناك كذلك أحمد بن القاضي الفوتي التنبكتاوي الذي دخل فاس عند إيابه من الحج زار المغرب وقدم "رسالة في البدع" إلى السلطان مولاي سليمان، يصف فيها

مختلف البدع التي لاحظها أثناء توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهدفه من هذه الرسالة هو تدخل السلطان لتغير المناكر والقضاء على البدع.

وكذلك محمد بن يحيي الولاتي الذي دخل المغرب وزار أقطار شمال الصحراء، وغيرهم كثير.

ويعتبر الكتاب من أهم أدوات التواصل بين ضفتي الصحراء، فقد حظي بالعناية إما بالتأليف أو النسخ أو الشراء، وتزخر المكتبات المغربية على سبيل المثال بالعديد من المخطوطات الإفريقية وهي لعلماء من بلاد السودان، ساهموا في خدمة الثقافة العربية – الإسلامية– وألفوا في مختلف المجالات: في التاريخ والفقه والتراجم والرحلات والتصوف... فهناك مثلا في المغرب مجموعة من مخطوطات أحمد بابا التنبكتي، ومجموعة مخطوطات الأسرة الكنتية...

وتضم جل مكتبات أقطار ضفتي الصحراء مخطوطات لأعلام الضفتين وصلت أما بالإهداء أو النسخ أو الشراء. إذ تشير المصادر إلى أن الإقبال على الكتب القادمة من الشمال الإفريقي كان إقبالا عظيما، فقد أشار الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا"... "وفي البلاد إقبال عظيم على الكتب المنسوخة التي ترد إليها من الشمال الإفريقي، وتجار الكتب يربحون أكثر..."

المصنفات المغربية معتمدة في حلقات العلم بالمنطقة، وكان كتاب "الشفا" للقاضي عياض بن موسى (ت 1149م) متداولا في حلقات الدروس بتنبكت (تمبكتو) منذ القرن 14 م، كما كانت قراءته في الأعياد والمناسبات الدينية عادة جارية لدى السودانيين؛ وإلى غاية القرن 20 ظل هذا الكتاب يحظى بأهمية كبيرة لديهم.

ويتناول كتاب "الشفا" في صفحاته الأخيرة مسألة الكفر والتكفير تكفير كل من كان يقوم بأعمال تخالف الشريعة الإسلامية: عدم الصيام– عدم قيام الصلاة بقواعدها المعروفة...، وقد اعتمد هذا الكتاب في معالجة مسألة الكفر والتكفير بمنطقة إفريقيا

جنوب الصحراء، ولهذا احتل مكانة متميزة (بعد القرآن وصحيح البخاري ومختصر خليل) في قلب وعقل السودانيين.

ومن مظاهر التواصل الثقافي بين علماء ضفتي الصحراء نشير إلى الفتاوى التي تبودلت حول العديد من القضايا وخاصة التبغ الذي ظهر بقرب إفريقيا فالمصادر العربية في شمال وغرب إفريقيا تؤكد أن منطقة تنبكت على نهر النيجر كانت المدخل الأول لنبات التبغ، ولعادة التدخين في البلاد الإسلامية من غرب إفريقيا وشمالها.

ففي أواخر القرن 16 استقبلت تمبكتو التبغ من سواحل الغرب الإفريقي بعد أن نقله إليها البحارة الأوربيون من موطنه في العالم الجديد، وتجمع المصادر على أن عادة التدخين انتشرت بسرعة مذهلة بين جميع طبقات المجتمع في تلك المنطقة، ثم انطلقت بعد ذلك إلى المغرب، ومنها بواسطة الحجاج المغاربة والسودانيين لتعم في وقت وجيز كل الشمال الإفريقي.

ولعل السبب المباشر لانتشار التدخين بشكل سريع هو الزعم بأن التبغ دواء شامل يستخدم في علاج الأمراض والأوبئة المنتشرة حينذاك. ويزكي هذه المقولة ما ورد في إحدى المصادر (الوثائق) بأنه "في غشت 1596-1597، ظهرت أوراق شجرة في مدينة تمبكتو تسمى "طبغا"، ابتلى بها المسلمون بتدخينها وشرب دخانها في كل وقت. وزعموا أن ذلك دواء لكل الأمراض، وإنهم وجدوا في شربها الشفاء للأمراض حتى استعملها خاصتهم وعامتهم" [إبراهيم اللقاني، نصيحة الإخوان باجتناب الدخان، مخطوط، خ.ح].

فالتدخين إذن عادة وافدة على العالم الإسلامي منذ أواخر القرن 16، ومطلع القرن 17. فهي عند رجال الدين آنذاك بدعة حديثة الظهور لم تعرفها الأجيال السابقة، ولم يرد لها ذكر في كتب الفقه.

فقد أدى ظهور التبغ إلى إشعال جدل واسع طويل بين العلماء من جميع المذاهب، كان جوهره الأساسي رعاية المصلحة العامة، أو بمعنى أدق عما إذا كان

التدخين ذا مصلحة أو ذا مفسدة يعودان على المدخنين وعلى المجتمع، فتضاربت آراء الفقهاء، وتباينت أحكامهم.

وقد وردت بعض هذه الأحكام أو الفتاوى في عبارات مقتضبة، أو في أسطر معدودة، وأخريات أسهب أصحابها في سرد وتفنيد الأدلة والبراهين الشرعية، التي تستند عليها هذه الأحكام. ويقدر الأستاذ محمد حجي عدد الفتاوى الصادرة في هذا الموضوع وحده بأكثر من ثلاثين فتوى، وهذا تعبير حي لحيوية العالم الإسلامي الإفريقي ووحدته الروحية، وهذه الفتاوى تعكس اهتمامات أصحابها المتعددة.

وجهتُ الأسئلة في هذا الموضوع إلى أكابر العلماء في فاس وتمبكتو، ومراكش والقاهرة، وغيرها من المراكز الإسلامية ذات الثقل العلمي.

فالسؤال الذي قدم إلى قاضي تمبكتو القاضي محمد بن أحمد بن عبد الرحمان (1594–1608)، والذي أفتى على ضوئه بتحريم التدخين يصف التبغ بأنه "شجرة ابتلى الله سبحانه وتعالى المسلمين بتدخينها".

ويقرر السؤال الموجه إلى العالم الأزهري وشيخ المالكية بمصر، الشيخ سالم السنهوري (ت 1606 م) أن التبغ شجرة خرجت من بلاد الكفار [...] ويحصل لمن يشربها خدور وبعضهم يغيب عقله خصوصا في ابتدائها، فهل والحالة هذه يجوز تعاطيها وشربها وزراعتها، أم يمنع ذلك... أفتونا رحمكم الله".

وقد أفتى السنهوري بتحريمها ومنع استعمالها مطلقا، لأنها تغيب العقل، وكل ما يغيب العقل حرام سواء كان بالسكر أو بالفساد..." كما جاء في رد قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي (ت 1607 م).

وقد بادر السلطان أحمد المنصور السعدي (1578 –1603) إلى منع تعاطي التبغ وتجارته وفرض حضرا على التبغ، إلا أنه بعد وفاته عاود الناس التدخين واستيراد التبغ من جديد.

ومن مظاهر العلاقات الثقافية كذلك اهتمام علماء المغرب وخاصة علماء فاس بوضع تعاليقهم على المؤلفات والمخطوطات الإفريقية، (نموذج للعالم المغربي محمد بن الطيب القادري الذي وضع مؤلفات على كتب أحمد بابا التنبكتي (منها كتاب الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج) بالإضافة إلا طبع المؤلفات السودانية بفاس نظرا لوجود المطبعة الحجرية بهذه المدينة، فقد طبعت العديد من المخطوطات السودانية بهذه المدينة خلال القرن 19.

III - العلاقات الاقتصادية:

تعود جذور العلاقات التجارية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء إلى عدة قرون سابقة، ولاسيما إلى عصر المرابطين الذين أقاموا امبراطورية تمتد من نهر السنيغال إلى مدينة الجزائر ونهر إيبرو في الأندلس.

وكل هذه المناطق المتباعدة أصبحت – حتى بعد المرابطين– تكون مجالا اقتصاديا متكاملا. وبانتقال السلع والأشخاص داخله، كانت تنتقل العناصر الحضارية الأخرى.

لقد ظهرت عدة مدن في الجنوب الصحراوي مثل ولاته وغو وتمبوكتو، وأصبحت محطات لانطلاق ووصول القوافل الصحراوية، وهكذا أصبحت الطرق العابرة للصحراء تنطلق من الواحات الشمالية، مثل سجلماسة وتوات وغدامس – حيث يتجمع تجار المغرب– إلى جنوب الصحراء.

فما هي أهم المواد التي كان يتم تبادلها بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء؟

كان الملح المعدني من أهم البضائع المصدرة إلى السودان الغربي (كان يستخرج من مناجم تغازى (قرب سجلماسة) وبذلك أتيح للتجار المغاربة حمله أثناء قطع الصحراء نحو الجنوب، وللحصول على الملح كان "يحفز عليه في الأرض، فيوجد منه ألواح ضخام متراكمة، كأنها نحتت ووضعت تحت الأرض" [حسب تعبير بن بطوطة الذي قام برحلة إلى السودان الغربي سنة 1352–1353].

ويمكن أن يحمل الجمل منه قطعتين أو أربع قطع حسب الحجم. كما كان ثمن الملح يزيد كلما ابتعدنا عن منطقة الإنتاج، كما كانت الأثمان تخضع لوفرة أو ندرة الملح.

وبالإضافة إلى قيمته الغذائية كانت له قيمة نقدية في السودان الغربي، إذ كانت اللوحات تجزأ إلى قطع صغيرة تستعمل في تجارة المواد الغذائية.

قام ابن بطوطة برحلته سنة 1352-1353، انطلق من فاس إلى سجلماسة، فقطع الصحراء عبر تغازى ووصل إلى مدينة ولاته، ومنها إلى مدينة مالي تم إلى تمبوكتو، وغاو وتكدا، ومن هذه الأخيرة عاد إلى المغرب مرورا بهكار وتوات، وسجل ما شهده أو سمعه بدقة نادرة" (ظروف عبور الصحراء، التقاليد والعادات في المناطق التي زارها...).

وكان الملح الصحراوي يتعدى حدود امبراطورية مالي ويصل إلى المناطق الغابوية الاستوائية حيث يقايض بالذهب.

كما كان المغرب يصدر النحاس إلى بلدان إفريقيا' جنوب الصحراء، وكان هذا المعدن يصدر بعد تحويله إلى أواني وإلى قضبان مختلفة الحجم وإلى حلي.

وقد لعب النحاس بجانب الملح دورا بارزا في الحصول على ذهب المناطق الجنوبية المتاخمة لإمبراطورية مالي حيث كانت تعيش الشعوب الغير الإسلامية (الوثنية) فكانت تستبدل ذهبها بالنحاس لاستعماله في صناعة الأقنعة والتماثيل اللازمة لطقوسها الدينية.

وهناك سلعة أخرى كانت تصل إلى السودان الغربي من المغرب، ويتعلق الأمر بمختلف أنواع المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية، التي وجدت زبائن كثيرين في الحواضر السودانية منذ بداية انتشار الإسلام فيها في القرنين 10 والحادي عشر الميلادي، واستمرت هذه الصادرات خلال القرون اللاحقة.

ويمكن أن نضيف إلى كل ما ذكرناه، المنتوجات الفلاحية كالقمح والخيول التي كانت تحتل مكانة مهمة في الصادرات المغربية (كانت امبراطورية مالي في حاجة إلى الخيول المغربية المعروفة بقوتها وطول قامتها، في العمليات العسكرية والدفاع عن حدودها). هذه هي أهم الصادرات المغربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وهي لا تختلف في مجملها عما كان عليه الحال في باقي الفترات التاريخية.